"سأغامر في سبيل النجاح حتى الموت،

ولن أرجع حتى أدرك غايتي أو أموت دونها

ميتة البطل الشهيد"

- الملك عبدالعزيز آل سعود -

عمر المختار (؟-١٩٣١):

"المختار... ثلاثية الجهاد والإباء والتضحية"

أسد الصحراء، شيخ المجاهدين... ألقاب لرجل لا نكتفي بوصفه بالألقاب، ولا حتى بالأشعار و الملاحم، رجل تجلت فيه أسمى معاني الجهاد، وأرقى عبارات الإباء والتضحية في سبيل الدين ثم الوطن.

نسبه:

هو عمر بن المختار بن عمر بن فرحات من بيت غيث من قبيلة بريدان وهي بطن من قبيلة المنفة. أمه عائشة بنت محارب.

مولده ونشأته:

لم يحدد المؤرخون -على وجه الدقة- السنة التي ولد فيها عمر المختار، إلاّ أن الراجح أنه ولد نحو عام ١٨٦٢م في قرية جنزور بمنطقة البطنان الصحراوية في الجهات الشرقية من برقة التي تقع شرقي ليبيا على الحدود المصرية، وتربى تربية البدو في مضارب قبيلة المنفة. وقبيلته هذه من قبائل المرابطين، الذين عرفوا تاريخياً برباطهم على ثغور ديار الإسلام لحمايتها. تربى المختار

يتيماً، حيث وافت المنية والده مختار بن عمر وهو في طريقه إلى مكة المكرمة بصحبة زوجته عائشة.

تلقى عمر المختار تعليمه الأول في جنزور، ثم سافر إلى الجغبوب ليمكث فيها ثمانية أعوام للدراسة والتحصيل على كبار علماء ومشايخ السنوسية في مقدمتهم الإمام السيد المهدي السنوسى قطب الحركة السنوسية، فدرس اللغة العربية والعلوم الشرعية وحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، ولكنه لم يكمل تعليمه كما تمنى.

ظهرت عليه علامات النجابة ورزانة العقل، فاستحوذ على اهتمام ورعاية أستاذه السيد المهدي السنوسى مما زاده رفعة وسموّاً، فتناولته الألسن بالثناء بين العلماء، ومشايخ القبائل، وأعيان المدن، حتى قال فيه السيد المهدي واصفاً إياه " لو كان عندنا عشرة مثل عمر المختار لاكتفينا بهم".

شارك عمر المختار في الجهاد بين صفوف المجاهدين في الحرب الليبية الفرنسية في المناطق الجنوبية (السودان الغربي) وحول واداي. وقد استقر المختار مدة من الزمن في قرو مناضلاً ومقاتلاً، ثم عين شيخاً لزاوية (عين كلك) ليقضي حقبة من حياته معلماً ومبشراً بالإسلام في تلك الأصقاع النائية.

وبعد وفاة السيد محمد المهدي السنوسي عام ١٩٠٢م تم استدعاؤه حيث عين شيخاً لزاوية القصوروهذه الزاوية تقع في أرض قبيلة العبيد ببرقة الحمراء، وعرفت هذه القبيلة بتمردها وصعوبة مراسها وعدم خضوعها لأي سلطان، ولكن سرعان ما نمت عنده مهارات، منها: معرفة أنساب القبائل، وسبر كل واحدة منها في التقاليد والعادات، وألم بمواطنها وأجاد فض المنازعات، ووأد ثاراتها التاريخية في كياسة وفطنة، مما أكسبه علاقة طيبة مع شيوخ ووجهاء قبائل برقة التي كان لها الدور الحاسم في تسلمه قيادة الجهاد فيما بعد.

معلم يتحول إلى محارب:

عاش عمر المختار حرب التحرير والجهاد منذ بدايتها يوماً بيوم، فعندما أعلنت إيطاليا الحرب على الدولة العثمانية في ٢٩ سبتمبر ١٩١١م، وبدأت البارجات الحربية تصب قذائفها على مدن الساحل الليبي، وعندما علم المختار بالغزو الإيطالي سارع إلى تنظيم حركة الجهاد والمقاومة، وقد شهدت الحقبة التي أعقبت انسحاب الأتراك من ليبيا سنة ١٩١٢م أعظم المعارك في تاريخ الجهاد الليبي، نذكر منها على سبيل المثال معركة يوم الجمعة عند درنة في ١٦ مايو ١٩١٣م حيث قُتل فيها للإيطاليين عشرة ضباط وستون جنديا وأربعمائة فرد بين جريح ومفقود إلى جانب انسحاب الإيطاليين بلا نظام تاركين أسلحتهم ومؤنهم وذخائرهم.

وحينما عين أميليو حاكماً عسكريا لبرقة، رأى أن يعمل على ثلاثة محاور:

الأول: قطع الإمدادات القادمة من مصر والتصدي للمجاهدين في منطقة مرمريكا.

الثاني: قتال المجاهدين في العرقوب وسلنطه والمخيلي.

والثالث:قتال المجاهدين في مسوس وأجدابيا.

لكن القائد الإيطالي وجد نار المجاهدين في انتظاره في معارك أم شخنب وشليظيمة والزويتينة في فبراير ١٩١٤م، وتتواصل حركة الجهاد بعد ذلك حتى وصلت إلى مرحلة جديدة بقدوم الحرب العالمية الأولى.

الفاشيست والمجاهدون:

بعد الانقلاب الفاشي في إيطالي في أكتوبر ١٩٢٢، وبعد الانتصار الذي تحقق في تلك الحرب، إلى الجانب الذي انضمت إليه إيطاليا، تغيرت الأوضاع

داخل ليبيا واشتدت الضغوط على السيد محمد إدريس السنوسي، واضطر إلى ترك البلاد وقد عهد بالأعمال العسكرية والسياسية إلى عمر المختار في الوقت الذي قام أخوه الرضا مقامه في الإشراف على الشؤون الدينية.

بعد أن تأكد للمختار النوايا الإيطالية في العدوان قصد مصر عام ١٩٢٣م للتشاور مع السيد إدريس فيما يتعلق بأمر البلاد، وبعد عودته نظم أدوار المجاهدين وتولى هو القيادة العامة.

بعد الغزو الإيطالي على مدينة أجدابيا مقر القيادة الليبية، أصبحت كل المواثيق والمعاهدات ملغاة، وانسحب المجاهدون من المدينة وأخذت إيطاليا تزحف بجيوشها من مناطق عدة نحو الجبل الأخضر، وفي تلك الأثناء تسابقت جموع المجاهدين إلى تشكيل الأدوار والانضواء تحت قيادة عمر المختار، كما بادر الأهالي إلى إمداد المجاهدين بالمؤن والعتاد والسلاح، وعندما ضاق الإيطاليون ذرعاً من الهزيمة على يد المجاهدين، أرادوا أن يمنعوا عنهم طريق الإمداد فسعوا إلى احتلال الجغبوب ووجهت إليها حملة كبيرة في ٨ فبراير ١٩٢٦م، وقد شكل سقوطها أعباء ومتاعب جديدة للمجاهدين، وعلى رأسهم عمر المختار، ولكن الرجل حمل العبء كاملاً بعزم العظماء وتصميم الأبطال.

ولاحظ الإيطاليون أن الموقف يملي عليهم الاستيلاء على منطقة فزان؛ لقطع الإمدادات عن المجاهدين، فخرجت حملة في يناير ١٩٢٨م، ولم تحقق غرضها في احتلال فزان بعد أن دفعت الثمن غاليا، وعلى الرغم من حصار المجاهدين وانقطاعهم عن مراكز تموينهم، إلا أن الأحداث لم تنل منهم، وتثبط من عزمهم، والدليل على ذلك معركة يوم ٢٢ أبريل التي استمرت يومين كاملين، انتصر فيها المجاهدون وغنموا عتاداً كثيراً.

مفاوضات السلام في سيدي ارحومة:

وتوالت الانتصارات، الأمر الذي دفع إيطاليا إلى إعادة النظر في خططها وإجراء تغييرات واسعة، فأمر موسوليني بتغيير القيادة العسكرية، حيث عين بادوليو حاكماً عسكريا على ليبيا في يناير ١٩٢٩م، ويعد هذا التغيير بداية المرحلة الحاسمة بين الطليان والمجاهدين.

- مفاوضات السلام في سيدي ارحومة -

تظاهر الحاكم الجديد لليبيا في رغبته للسلام؛ لإيجاد الوقت اللازم لتنفيذ خططه وتغيير أسلوب القتال لدى جنوده، وطلب مفاوضة عمر المختار، تلك المفاوضات التي بدأت في ٢٠ أبريل ١٩٢٩م.

واستجاب الشيخ لنداء السلام، وحاول التفاهم معهم على صيغة ليخرجوا من دوامة الدمار؛ فذهب كبيرهم للقاء عمر المختار ورفاقه القادة في ١٩ يونيو١٩٢٩م في سيدي ارحومه، ورأس الوفد الإيطالي بادوليونفسه، الرجل الثاني بعد بنيتو موسليني، ونائبه سيشليانو، ولكن لم يكن الغرض هوالتفاوض،

ولكن المماطلة وكسب الوقت لتلتقط قواتهم أنفاسها، وقصد الغزاة الغدر به والدس عليه، وتأليب أنصاره والأهالي وفتنة الملتفين حوله.

وعندما وجد المختار أن تلك المفاوضات تطلب منه إما مغادرة البلاد إلى الحجاز أومصر أو البقاء في برقة و إنهاء الجهاد والاستسلام مقابل الأموال والإغراءات، رفض كل تلك العروض، ولأنه بطل شريف ومجاهد عظيم عمد إلى الاختيار الثالث وهو مواصلة الجهاد حتى النصر أو الشهادة. وعاد عمر المختار ورجاله لرسالتهم الجهادية، وعادت إيطاليا إلى عنجهيتها في التعامل معهم.

وفي ٢٠ سبتمبر ١٩٢٩م استشهد الفضيل بوعمر، وكان فراقه ضربة مؤلمة للمجاهدين، وبذلك فقد عمر المختار رفيقاً في الدرب وعوناً في الكرب.

وعلى الرغم من نصب المشانق وفتح المعتقلات والسجون، وعزل المنتجعات عن المجاهدين، وإحاطة الأهلين بالأسلاك الشائكة المكهربة، واستعمال الطائرات والمدافع والقنابل ذات الغاز السام المحرمة دولياً، وصرخات غراتسياني وتهديداته للشعب الليبي بقوله: "عندي لكم ثلاث حالات: الباخرة الموجودة في الميناء (أي النفي إلي الجزر الإيطالية النائية)، وأربعة أمتار فوق الأرض (المشنقة)، ورصاص بنادق جندنا (الإعدام رمياً بالرصاص)". وكرر ذلك الحاكم العام لليبيا بادوليو بالتأكيد فقال: "سأدمر كل شئ... الرجال والمصالح". وعلى الرغم من كل ذلك لم يتزحزح عمر المختار قيد أنملة، ووقف عملاقاً في وجه غراتسياني وجيوشه المرتزقة التي أتى بها من إريتريا والصومال، عدا الإيطاليين أنفسهم، وحار غراتسياني في عمر المختار وإخوانه المجاهدين الذين لم تؤثر فيهم هذه الاحتياطات كلها، مع أن إيطاليا قد جهزت لكل مجاهد ليبي عشرة مقاتلين من رجالها، ومع ذلك فقد كلفتها قرابة الربع مليون قتيل وفقيد إيطالي و١٦ مليار فرنك قديم؛ مما أنهك إيطاليا عسكرياً ومعنوياً. فاستسلم غراتسياني لليأس، وقد دفعه هذا اليأس إلى الحقد على عمر المختار، فأصبح كل أمله أن

يموت هذا الشيخ الكبير، ثم فكر في القبض على عمر المختار وذلك بحرق غابات الجبل الأخضر، ولكنه لم يتمكن من إتمام مهمته، فأصيب بانهيار عصبي وسافر إلي إيطاليا للاستجمام في الوقت الذي كان عمر المختار يتمتع فيه براحة البال في ظل حلاوة الإيمان، ورجع شيخنا رغم تقدم السن به إلى سفوح الجبل الأخضر، وظهور الجياد، يقاتل ويجالد، وكثيراً ما كان يهتزج عند لقاء العدو مغنياً:

جيتو في عيد ويوم ســـعيد إن عشت سعيد وإن مت شهيد

السفاح يتدخل:

دفعت مواقف المختار ومنجزاته إيطاليا إلى دراسة الموقف من جديد وتوصلت إلى تعيين غرسياني وهو أكثر جنرالات الجيش وحشية ودموية؛ ليقوم بتنفيذ خطة إفناء وإبادة تاريخية عنيفة، وقد تمثلت في عدة إجراءات ذكرها غرسياني في كتابه "برقة المهدأة":

١- قفل الحدود الليبية المصرية بالأسلاك الشائكة لمنع وصول المؤن والذخائر.

٢- إنشاء المحكمة الطارئة في أبريل ١٩٣٠م.

٣- فتح أبواب السجون في كل مدينة وقرية، ونصب المشانق في كل جهة.

٤- تخصيص مواقع العقيلة والبريقة من صحراء غرب برقة البيضاء، والمقرون وسلوق من أواسط برقة الحمراء؛ لتكون مواقع الاعتقال والنفي والتشريد.

٥- العمل على حصار المجاهدين في الجبل الأخضر واحتلال الكفرة.

انتهت عمليات الإيطاليين في فزان باحتلال مرزق وغات في شهري يناير وفبراير ١٩٣٠م ثم عمدوا إلى الاشتباك مع المجاهدين في معارك فاصلة، وفي ٢٦ أغسطس ١٩٣٠م ألقت الطائرات الإيطالية حوالي نصف طن من القنابل على

الجوف والتاج، وفي نوفمبر اتفق بادوليو وغرسياني على خط الحملة من أجدابيا إلى جالو إلى بئر زيغن إلى الجوف، وفي ٢٨ يناير ١٩٣١م سقطت الكفرة في أيدي الغزاة، وكان لسقوط الكفرة آثار كبيرة على حركة الجهاد والمقاومة.

الأسد أسيراً:

في معركة السانية في شهر أكتوبر عام ١٩٣٠م سقطت من الشيخ عمر المختار نظارته، وعندما وجدها أحد جنود الطليان وأوصلها لقيادته، وعندما رآها غراتسياني قال: "الآن أصبحت لدينا النظارة، وسيتبعها الرأس يوماً ما".

وفي ١١ سبتمبر من عام ١٩٣١م، وبينما كان الشيخ عمر المختار يستطلع منطقة سلنطة في كوكبة من فرسانه، عرفت الحاميات الإيطالية مكانه فأرسلت قوات لحصاره ولحقها تعزيزات، واشتبك الفريقان في وادي بوطاقة ورجحت الكفة للعدو فأمر عمر المختار بفك الطوق والتفرق، ولكن فرسه قُتلت تحته وسقطت على يده مما شل حركته نهائياً. فلم يتمكن من تخليص نفسه ولم يستطع تناول بندقيته ليدافع عن نفسه، فسرعان ماحاصره العدو من كل الجهات، وتعرفوا على شخصيته، فنقل على الفور إلى مرسى سوسه، ومن ثم وضع على طراد نقله رأسا إلى بنغازي، حيث أودع السجن الكبير بمنطقة سيدي أخريبيش، ولم يستطع الطليان نقل الشيخ براً لخوفهم من تعرض المجاهدين لهم في محاولة لتخليص قائدهم.

كان لاعتقاله صدىً كبيراً في صفوف العدو، حتى إن غراسياني لم يصدّق ذلك في بادىء الأمر، وكان غراتسياني في روما حينها كئيباً حزيناً منهار الأعصاب، في طريقه إلى باريس للاستجمام والراحة؛ تهرباً من الساحة بعد فشله في القضاء على المجاهدين في برقة، حيث بدأت الأقلام اللاذعة في إيطاليا تنال منه، والانتقادات المرة تأتيه من رفاقه، مشككة في مقدرته على إدارة

الصراع. وإذا بالقدر ينقذه من أزمته عندما تلقى برقية مستعجلة من بنغازي مفادها إن عدوه اللدود عمر المختار وراء القضبان؛ فأصيب غراتسياني بحالة هستيرية كاد لا يصدق الخبر، فتارة يجلس على مقعده وتارة يقوم، وأخرى يخرج متمشياً على قدميه محدثاً نفسه بصوت عال، ويشير بيديه ويقول: "صحيح قبضوا على عمر المختار ؟ ويرد على نفسه لا، لا اعتقد." ولم يسترح باله فقرر إلغاء أجازته واستقل طائرة خاصة وهبط في بنغازي في اليوم نفسه وطلب إحضار عمر المختار إلى مكتبه لكي يراه بأم عينه.

- المختار أسيراً، وتبدو ملامح الفرح على كبار الضباط الطليان -

وصل غراتسياني إلى بنغازي يوم ١٤ سبتمبر، وأعلن عن انعقاد "المحكمة الخاصة" يوم ١٥ سبتمبر ١٩٣١م، وفي صبيحة ذلك اليوم وقبل المحاكمة رغب غرسياني في الحديث مع عمر المختار، يذكر غراتسياني في كتابه (برقة المهدأة):

"وعندما حضر أمام مكتبي تهيأ لي أن أرى فيه شخصية آلاف المرابطين الذين التقيت بهم أثناء قيامي بالحروب الصحراوية. يداه مكبلتان بالسلاسل،

رغم الكسور والجروح التي أصيب بها أثناء المعركة، وكان وجهه مضغوطا لأنه كان مغطيا رأسه (بالجرد) ويجر نفسه بصعوبة نظراً لتعبه أثناء السفر بالبحر، وبالإجمال يخيل لي أن الذي يقف أمامي رجل ليس كالرجال له منظره وهيبته رغم أنه يشعر بمرارة الأسر، ها هو واقف أمام مكتبي نسأله ويجيب بصوت هادئ وواضح."

غراتسياني: لماذا حاربت بشدة متواصلة الحكومة لفاشستية ؟

أجاب الشيخ: من أجل ديني ووطني.

غراتسياني: ما الذي كان في اعتقادك الوصول إليه ؟

فأجاب الشيخ: لا شئ إلا طردكم... لأنكم مغتصبون، أما الحرب فهي فرض علينا وما النصر إلا من عند الله.

غراتسياني: لما لك من نفوذ وجاه، في كم يوم يمكنك إن تأمر الثوار بأن يخضعوا لحكمنا ويسلموا أسلحتهم ؟

فأجاب الشيخ: لا يمكنني أن أعمل أي شئ، وبدون جدوى نحن الثوار سبق أن أقسمنا أن نموت كلنا الواحد بعد الآخر، ولا نسلم أو نلقي السلاح.

ويستطرد غراتسياني حديثه "وعندما وقف ليتهيأ للانصراف كان جبينه وضاء كأن هالة من نور تحيط به فارتعش قلبي من جلالة الموقف أنا الذي خاض معارك الحروب العالمية والصحراوية ولقبت بأسد الصحراء. ورغم هذا فقد كانت شفتاي ترتعشان ولم أستطع أن أنطق بحرف واحد، فانهيت المقابلة وأمرت بإرجاعه إلى السجن لتقديمه إلى المحاكمة في المساء، وعند وقوفه حاول أن يمد يده لمصافحتي ولكنه لم يتمكن لأن يديه كانتا مكبلتين بالحديد."

مهزلة المحاكمة:

عقدت للشيخ الشهيد محكمة هزلية صورية في مركز إدارة الحزب الفاشستي في بنغازي مساء يوم الثلاثاء عند الساعة الخامسة والربع في ١٥ سبتمبر ١٩٣١م، وبعد ساعة -تحديداً- صدر منطوق الحكم بالإعدام شنقاً حتى الموت، وعندما ترجم له الحكم، قال الشيخ "إن الحكم إلا لله... لا حكمكم المزيف... "إنا لله وإنا إليه راجعون".

بعد ذلك سمح للجمهور بدخول قاعة الجلسات، بينما جلس المتهم في المكان المخصص للمتهمين، تحت حراسة عسكرية، وهو طليق اليدين وغير مكبل بأغلال من أي نوع.

- جانب من محاكمة المختار الهزلية -

الشهادة:

في صباح اليوم التالي للمحاكمة الأربعاء، ١٦ سبتمبر ١٩٣١، اتخذت جميع التدابيراللازمة بمركز سلوق لتنفيذ الحكم وذلك بإحضار جميع أقسام الجيش

والميليشيا والطيران، وأحضر ٢٠ ألفاً من الأهالي وجميع المعتقلين السياسيين خصيصاً من أماكن مختلفة لمشاهدة تنفيذ الحكم في قائدهم.

□ صورة نادرة للشهيد عمر المختار
كما أخذها له الفاشيست بعد أسره.

- صورة وبيانات عمر المختار كما أخذها الطليان بعد أسره -

وأحضر الشيخ عمر المختار مكبل الأيدي، وعلى وجهه ابتسامة الرضا بالقضاء والقدر، وبدأت الطائرات تحلق في الفضاء فوق المعتقلين بأزيز مجلجل حتى لا يتمكن عمر المختار من مخاطبتهم.

وفي تمام الساعة التاسعة صباحاً سلم الشيخ إلى الجلاد، وكان وجهه يتهلل استبشاراً بالشهادة وكله ثبات وهدوء، فوضع حبل المشنقة في عنقه، وقيل عن بعض الناس الذين كانوا على مقربة منه إنه كان يؤذن في صوت خافت آذان الصلاة، والبعض قال: إنه تمتم بالآية الكريمة "يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية" ليجعلها مسك ختام حياته البطولية. وبعد دقائق صعدت روحه الطاهرة النقية إلى ربها، تشكو إليه عنت الظالمين وجور المستعمرين.

- الشهيد عمر المختار مشنوقاً -

وسبق إعدام الشيخ أوامر شديدة بتعذيب وضرب كل من يبدي الحزن أو يظهر البكاء عند إعدام عمر المختار، فقد ضُرب جربوع عبد الجليل ضرباً مبرحاً بسبب بكائه عند إعدام عمر المختار. ولكن علت أصوات الاحتجاج ولم تكبحها سياط الطليان، فصرخت فاطمة داروها العبارية وندبت فجيعة الوطن عندما رأت الشيخ شامخاً مشنوقاً، ووصفها الطليان بـ"المرأة التي كسرت جدار الصمت".

وصُعقت الأمة بوحشية إيطاليا في تنفيذ حكم الإعدام بعمر المختار، وهو في نحو العقد السابع من عمره، وهاج الشارع العربي وماج، مع صمت رهيب مريب في الدوائر والمؤسسات الرسمية العربية؛ فامتعض الشارع العربي في مصر وسوريا وتونس والمغرب والجزائر والعراق؛ حيث أقيمت المآتم، وخرجوا في مظاهرات طافت شوارع المدن، وأغلقت المتاجر، ودعا الخطباء إلى مقاطعة

البضائع الإيطالية، وظهر الشارع العربي بمظهر الحداد على هذا الرجل العصامي، وصُليت عليه صلاة الغائب في المسجد الأقصى في فلسطين، وجامع بني أمية في سوريا، وكذلك تلاحمت الحوزة الشيعية بالكاظمية في العراق مع جهاد عمر المختار واستشهاده.

أما في فلسطين فطالب علماؤها وأعيانها أن يسلم جثمان عمر المختار لهم لكي يدفن في القدس تبركاً وتيمناً به كمجاهد صادق غيور.